ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Impact of Economic Life on the Poetry of Ali bin Al-Jahm During the Reign of Al-Mutawakkil

Raeed Hazim Hasan

Tikrit University/ College of Arts

* *Corresponding author: E-mail* : ra3adhazam@tu.edu.iq

***Keywords*:**
Abbasid Caliphate.
Economic life.
Poetry.
Impact.
Al-Mutawakkil.
Ali bin. Al-Jahm

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	15 July 2024
Received in revised form	25 July 2024
Accepted	17 Aug 2024
Final Proofreading	5 Aug 2024
Available online	10 Aug 2024

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

Economic life had a great impact on the poetry of the poets of the Abbasid state, and among these poets was the poetry of the poet Ali bin Al-Jahm during the era of Jaafar Al-Mutawakkil. Ibn al-Jahm was chosen for two main reasons: the first is due to the stylistic characteristic that distinguished his poems, which is the striking pictorial character that represented a phenomenon in his poetry, and he was one of the distinguished in it. The second is represented by his influence by the aspects of economic life in his reign, whether materialistic, such as: ways of living, methods of earning, resources and the treasury of that era, and the luxury of the caliphate, and he is one of the poets committed to his poetry

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.31.8.2024.03

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit

أثر الحياة الاقتصاديَّة في شِعر عليّ بن الجهم في عهد المتوكّل

رائد حازم حسن/ كلية الآداب / جامعة تكريت

الخلاصة:

إنَّ الحياة الاقتصاديَّة لها أثر كبير في شِعر شعراء الدَّولة العباسِيَّة، ومن هؤلاء الشعراء شِعر الشاعر عليّ بن الجَهم في عهد جعفر المتوكل. وقد وقع الاختيار على ابن الجَهم لسببين رئيسين: أوّلُهما يعود إلى السِّمة الأسلوبيَّة التي ميَّزت قصائِدَه، وهي طابَع التَّصوير اللّافت الذي مَثَّل ظاهرةً في شِعره، وكان من المُتميّزين فيه. وثانيهما يتمثّل في تأثُّره بمظاهر الحياة الاقتصاديَّة في عَصره، سواء أكانت الماديَّة، نحو: أساليب العيش وطرق الكسب، والموارد وبيت المال في ذانك العصر، وترف الخلافة، وهو من الشُّعراء

المُلتزمين في شِعرهم.

منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، من أجل تحقيق الأهداف المرجوّة عبر البحث العلّميّ الجادّ، وذلك على النَّحو الآتي:

١. المنهج الوصفي: القائم على تتبع النصوص الشعرية للجهم والتي أبرزت صورة الحياة الاقتصادية وتجميعها من مظانّها ذات الصِّلة، سواء الأدبيَّة أو التَّاريخيّة.
٢. المنهج التحليلي: واعتُمِدَ فيه بشكلٍ أساسيّ على تحليل تلك النصوص وبيان الأثر منها المستفاد والمُتعلّق بهذا الموضوع. أما منهجي في كتابة هذا البحث فيقوم على تحليل النصوص الشعرية واستخلاص النتائج منها، ومن ثم فقد كان ديوان علي بن الجهم المرجع الأساسي للحكم على شعر الشاعر، إلا أنني لم أغفل الرجوع إلى بعض المصادر والمراجع التي أعانتني كثيراً في هذا المجال .

وبُغية الوصول إلى غاية البحث المرجوّة تشكَّلت الدّراسة من تمهيد وثلاثة مطالب، وذلك على النّحو الآتي:

التمهيد: التَّعريف بمصطلحات البحث.

أولًا: التعريف بالشاعر عليّ بن الجهم.

ثانيًا: نبذة عن الحياة الاقتصاديَّة في عهد المتوكّل.

المطلب الأول: الولاء التام للعباسيين

المطلب الثاني: أساليب العيش وطرق الكسب.

المطلب الثالث: الموارد وبيت المال في ذانك العصر.

المطلب الرابع: ترف الخلافة.

الخاتمة: تضمنت أبرز النَّتائج، والتَّوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الدَّولة العباسيَّة، الحياة الاقتصاديّة، شِعر، أثر، المتوكّل، عليّ بن الجهم

المقدِّمة:

بدأَ العصر العباسيّ بسقوط الدَّولة الأُمويّة في الشَّام سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩ م) وانتهى بسقوط بغدادَ في قبضة التَّتار سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وإذا كانت دولة بني أُمية عربيَّةً أعرابيّةً فإنَّ الدَّولة العباسيَّة اتخذت بُعدًا أكثر اتساعًا واشتملت على أجناسٍ أخرى عديدة وعمّت في حضارتها مظاهرُ البذخ والتَّرف. ونتج عن

احتكاك العرب بتلك الأجناس الكثيرُ من التَّغيير في أنماط الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وغيرها. (ضيف، ١٩٩٥، ٣/ ٧٣)

وعَرَفَ الشِّعر العربيّ في هذا العصر على وجه الخصوص فنونًا وأغراضًا لم يألفها من قَبل، كالغَزل بالمذكّر والخمرة والميل إلى الأوصاف الحضريَّة والعزوف عن العصبيَّة والبداوة، وزالت في الكثير منه آثارُ التَّقليد والاحترام للأقدمين وحَلَّ مكانها النّفور، وحلّ التَّصريح وقِلَّةُ الاكتراث بديلَيْنِ عَنِ الكناية والتّستّر، واستعملت فيه الأوزان القصيرة ونُظِمت المقطّعات وظهرت القوافي المهجورة. (فروخ، ١٩٨١، ص٣٣)

وأصبح الشاعر (**عليّ بن الجهم**) في خلافة المتوكّل سَنَة(٢٣٢هـ) ـ؛ من أقرب الشُّعراء إلى الخليفة، يتّخذه جليسًا ونديمًا، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظيّاته، ويغدق عليه أمواله وجوائزه. وكان لِعَليّ بن الجَهمِ غَزَلٌ كثير أجاد فيه تصوير لواعج حبّه، وقد برع في مقدّماته الغزليَّة الرَّقيقة، ولاسيَّما في مستهلِّ مدائحه للخلفاء. وممّا ذائع من غزله في صدد مديحه للمتوكّل قوله: (ابن الجوزي، ١٩٩٧؛ المستعصمي، ٢٠١٥، ٧/ ٢٧٨):

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

وكان المتوكّل يأنس بعليّ بن الجهم ولا يكتمه شيئًا من أمره، وفي ذلك يقول ابن الجهم: وجّه إليَّ المتوكّل فأتيته، فقال لي: رأيت النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– السَّاعةَ في المنام، فقمتُ إليه فقال لي: تقوم إليَّ وأنتَ خليفة؟ فقلتُ له: أبشر يا أمير المؤمنين، أمَّا قيامكَ إليه فقيامكَ بالسُّنَّة، وقد عدَّك من الخلفاء. قال: فسُرَّ بذلك. (ابن عساكر، ١٩٩٥م،٧٢ / ١٥٩)

ومن اللّافت للنظر أنَّ شعر ابن الجهم خلا من مظاهر البداوة؛ فلم يُعثر على أيّ مظهر بدويّ أثناء الاطّلاع على ديوانه وفحصه، وأمَّا قوله (الجهم، د.ت، ص١١٧):

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلْوِدِّ وَكَالتِّيْسِ فِي قِرَاعِ الخُطُوبِ

أَنْتَ كَالدَّلْوِ لَا عَدِمْنَاكَ دَلْوًا مِن كِبَارِ الدِّلا كَثِيْرِ الذُّنُوبِ

فقد عَلَّق على هذين البيتَيْن مُحقِّقُ الدِّيوان بقوله: (ذَكر الشّيخ محيي الدِّين بن عربيّ في: محاضرة الأبرار ومُسامرة الأخيار أنَّ عليًّا بن الجهمِ مدحَ المتوكّل بقصيدةٍ منها هذان البيتان في خبرٍ يظهر عليه الوضعُ. والّذي نراه –إنْ صَحَّت نِسبة البيتين له– أنَّه قالهما في أحد مجالس المتوكّل للعبث مع بعض النُّدماء أو المُضحِكينَ)، وما يُؤيّد هذا الرَّأي عدم العثور على أشعارٍ أخرى في مضمونٍ مُقارب، بل على العكس من ذلك فقد فاضت أشعارُ ابن الجهم بمظاهر الحضارة، وأجواء المدينة. (الجهم، د.ت، ص١١٧)

التمهيد:

<u>أولًا:</u> التعريف بالشاعر عليٌّ بن الجهم

هو: عليّ بن الجهم (ابن عبد البرّ، ١٩٩٢م، ١/ ٢٦١)، بن بدر بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن بكعب بن مالك بن عتبة بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة يكنى أبا الحسن وأصله من خراسان. وهو شاعر مطبوع عذب الألفاظ سهل الكلام مقتدر على الشِّعر. كان إبراهيم الحربيّ يصفه ويقرظه، ويقال إنَّ إبراهيم هو ابن داية عليّ بن الجهم. ومدح عليّ المعتصم والواثق وجالسَ المتوكّل، ومات سنة تسع وأربعين ومائتين بناحية حلب بعد أنْ خرج متوجّهًا للغزو فقتله أعرابٌ مِن كلب. (المرزباني، ١٩٨٢م، ص ٢٨٦؛ الخطيب البغداديّ، ٢٠٠٢م، ٨/ ١٦٦)

له ديوان شعر مشهور، وكان جيد الشعر عالماً بفنونه، وله اختصاصٌ بجعفر المتوكل، وكان متديناً فاضلاً، وكان – مع انحرافه عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وإظهاره التسنن – مطبوعاً مقتدراً على الشعر عذب الألفاظ. وكان من ناقلة خراسان إلى العراق ثم نفاه المتوكل إلى خراسان في سنة اثنتين وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين ومائتين، لأنه هجا المتوكل، وكتب إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أنه إذا ورد عليه صلبه يوماً، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهاراً كاملاً، فقال في ذلك (ديوانه: ١٧١، ٢١٥)

لـــم ينصـــبوا بالشـــاذياخ صـــبيحة ال إثنـــــين مســـــبوقاً ولا مجهـــــولا

صـــــبوا بحمـــــد الله مـــــلء قلـــــوبهم شـــــرفاً ومـــــلء صـــــدورهم تبجـــــيلا

وهي أبيات كثيرة مشهورة ، ثم رجع إلى العراق ثم خرج إلى الشام، وبعد ذلك ورد على المستعين كتاب من صاحب البريد بحلب أنَّ علي بن الجهم خرج من حلب متوجهاً إلى العراق، فخرجت عليه وعلى جماعة معه خيل من بين كلب، فقاتلهم قتالاً شديداً، ولحقه الناس وهو جريح بأخر رمق، (ابن خلكان ٣٥٦) فكان مما قال (ديوانه: ١٧٠):

أَزيـــــدَ فـــــي اللَيـــــلِ لَيـــــلٌ أم سَـــــألَ بالصُـــــبْحِ سَـــــيْلُ

ثانيًا: نبذة عن الحياة الاقتصاديَّة في عهد المتوكّل:

تتعدّدُ تعريفات (الاقتصاد) اصطلاحًا، إلّا أنّها تدور حول كونِه عِلمًا يدرُسُ العَلاقة بين حاجات الإنسان وموارده؛ لتحقيق أكبر إشباع لهذه الحاجات بالاستخدام الأمثل لتلك الموارد. (المصري، ١٩٩٣م، ص١٢). ونظرًا لِمَا لكلمة (اقتصاد) من ارتباطٍ وثيق الصِّلة بالحياة العامَّة بكلمة "مادّة" أو "ماديّ"، فقد ذهبَ كثير من الاقتصاديين إلى إضفاء الصِّفة الاقتصاديَّة على كلِّ ما يمتّ إلى الوقائع الماديَّة (الحماض، ١٩٩٥م، ص١٢)

والمتوكل هو: جعفر المتوكّل بن محمَّد المعتصم بن هارون الرَّشيد بن محمَّد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمَّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس، وُلد المتوكّل سَنة سبعٍ ومئتين، وقِيلَ خمس، وبويع بسرّ من رأى سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، وكان أسمر، حسن العينَيْن، نحيف الجسم، خفيف العارِضَين، إلى القصر أقرب، كنيته أبو الفضل، وأمه أمّ ولد يقال لها شجاع، من سروات النّساء سخاءً وكرمًا، وهو عاشر الخلفاء العباسيّين، وقد بُويِعَ بالخلافة بعد موت أخيه هارون الواثق بمشاورة في ذلك سنة ٢٣٢هـ (ابن عساكر، ١٩٩٥م،١٥٧ – ١٥٨)، وهو بذلك ضمن الخلفاء العباسيّن بالتَّرتيب.

ولِيَ جعفرُ المتوكِّل فأَظهر الله السُّنَّة وفرّج عن النَّاس (الذّهبيّ، ٢٠٠٠، ٥/ ١٠٤٩)، وَتكلّم بهَا فِي مَجْلِسه، وَكتب إِلَى الْآفَاق بِرَفْع المحنة وَإِظْهَار السُّنَّة وَنَصر أَهلهَا. وَقَالَ عَليّ بن الجهم: كَانَت للمتوكّل جمّة إِلَى شحمة أُذُنَيْهِ كأبيه وَعَمّه. (ابن تغري، د.ت، ص١/ ١٥٥)

ومثّلتَ بغدادُ في العصر العباسيّ العاصمةَ الاقتصاديَّة للعالَم أجمع، وشكّلت الإيراداتُ والضَّرائب، والغنائم النّاتجة عن الغارات العسكريَّة على الأراضي البيزنطيَّة مواردَ رئيسةً للخزانة، كما لعبت التِّجارة دورًا مهمًّا في نموّ الإمبراطوريَّة؛ وكانت أسواق بغداد تعجّ بمختلف السِّلع والبضائع، وتنتشر فيها المؤسَّسات الماليّة الحديثة لتقديم الخدمات المصرفيّة.

أفضت تلك الظّروف جميعها إلى تحقيق ثراء فاحشٍ امتلأت عبره خزائن الخليفة جعفر المتوكّل ومن قَبله الرَّشيد بالذّهب والفضّة، وبلغت الدَّولة غايتها رفاهًا وانتعاشًا. ولا يمكن بحال إغفال أهمّيّة الزِّراعة الّتي كانت من أكبر مواردِ بيت المال؛ الأمر الّذي جعلها تحظى بعناية خاصّة في أرجاء الدّولة كلّها؛ فقُدِّمت المساعدات للمزارعين وجرى تشجيعهم، كما أصبحت الصِّناعة بأنواعها وفنونها عنصرًا مهمًّا من عناصر الحضارة في دولة المتوكّل، ومورِدًا رئيسًا لخزينة بيت المال. وكانت الصِّناعة على أنواعٍ: معدنيّة وحيوانيَّة ونباتيَّة. وتمتّعت أراضي الدّولة العباسيّة بقدر كبير من المعادن المدفونة في أتربتها. واتَّسع نطاق التِّجارة في عهد المتوكّل اتِّساعًا كبيرًا بفضل امتداد الطُّرق وصلاحيّتها لسير القوافل، محفوفةً بالأمن؛ حتّى اتَّصل غرب البلاد بشرقها وشمالها بجنوبها.

وعليه، فقد شَهَدَ العصر العباسيّ نهوضًا وتقدُّمًا في شتَّى العلوم والفنون، وانتقلت بدورها إلى مجالس الخلفاء، الّتي اشتملت على مادّةٍ علميّةٍ دسمةٍ، فسبقت تلك المجالس مرحلة بناء المدارس العلّميَّة الّتي بُنيت برغبةٍ وأمر من الخلفاء إبان ازدها الحياة الاقتصاديَّة.

ولَمَّا اتَّسعت الدَّولة العباسيَّة وكثرت أقاليمها وتزايدت مواردها الماليَّة، انعكس ذلك على المجتمع بما فيهم العِلم والعلماء، وأصبح الخليفة يختار المتميّزينَ مِن الأدباء والشُّعراء والمؤرّخين والفقهاء لمجالسته في أوقات معيّنة. وهدفت تلك المجالس إلى سماع أخبار العرب ونوادرهم وبطولاتهم، والاطّلاع على الأسرار العربيَّة وآدابها، وأقبلَ الخلفاء على الشِّعر والشُّعراء والأدب والأدباء –ومنهم عليّ بن الجهم– وأغدقوا عليهم

الأموال الطَّائلة، وخلقوا بينهم المنافسة في مدح الخلفاء –ومنهم جعفر المتوكّل– للتقرُّب من مصادر المال والسُّلطان. (خماس، د.ت، ص٢)

وكانت مجالس الخلفاء رديفةً لحلقات العِلم الّتي يعقدها العلماء والفقهاء والمحدّثون والوعّاظ في المساجد والمدارس كالمدرسة المستنصريَّة والمدرسة النِّظاميَّة وغيرها. (خماس، د.ت، ص١).

وفى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة. وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي، ومن قوله في وصف مجلس أنس(الديوان: ١٠٥):

الـــورد يضـــحك والأوتـــار تصـــطخب والنّـــاي ينـــدب أشـــجانا وينتحـــب

والـرّاح تعـرض فـي نـور الربيـع كمـا تجلـى العـروس عليهـا الـدرّ والـذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء. وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة جيدة في وصف سفينة (الديوان: ١١٤) وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيرا في أشعاره من مثل قوله (الديوان: ٢٠)

ومـن طلـب المعـروف مـن غيـر أهلـه أطـــال عنـــاء أو أطـــال تنـــدّما

ومـــن ســـامح الأيـــام يـــرض حياتـــه ومـــن مـــنّ بـــالمعروف عـــاد مـــذمّما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة، وكان كثيرا ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء.

المطلب الأول

الولاء التام للعباسيين

نسلط الضوء على جانب واسع من جوانب علاقات الشاعر الاجتماعية لاسيما وأن للتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي حدثت في العصر العباسي الأثر في الشعر من حيث البواعث، والموضوعات فقد بقي موضوع الشعر في هذا العصر كما كان. لقد انحاز علي بن الجهم للعباسيين خصومهم، وظل موقفه ثابتا طيلة حياته . وقد وقف ضد المعتزلة والشيعة وأهل الذمة، ولم يرتح لموقف الخليفة الواثق من أهل الحديث وفرح بقدوم المتوكل إلى سدة الخلافة لأن أفعاله وأهواءه جاءت على هوى المتوكل، وقد أوغر الشعراء والندماء من مختلف الأطياف السياسية (المعتزلة والشيعة وأهل الذمة والنصارى) صدر المتوكل فسجن علي بن الجهم ونفاه وصلبه وصادر أمواله إلا أن علي بن الجهم ظل مواليا للخلافة العباسية إلى أنْ أدركته المنية.

وهو من الذين انشقوا على طاعة الخليفة وأحدث الفتن مثل بابك الخُرَّمي، ومازيار بن قارن . فقد حث على محاربتهما وقتلهما، فكان له ما أراد، وبين أن ما لحق بهما من قتل وصلب ليس إلا جزاء على فعلتهما وعلى الفتنة التي أحدثاها.

وقد سجل الشاعر انتصارات الخليفة المعتصم على الروم، فقد ذكر الشاعر وقعة عمورية وما جرى بها من بطولات. وكذلك انتصار جيش الخلافة على الزط .وظل الشاعر مواليا للخلافة العباسية، فعندما نَكَبَ الخليفة محمد بن عبد الملك الزيات والوزير عمر بن فرج الرخجي سوّغ علي بن الجهم فعل الخليفة لأن الخليفة إنما نكبهم من أجل الرعية وانتقاماً لها.

لقد استحوذت الخلافة العباسية على أفئدة عدد ضخم من الشعراء، فما أن استقامت الأمور للعباسيين حتى بدأت وفود شعراء الأحزاب السياسية التي كانت تناوئ هذه السلطة تفد على قصر الخلافة مهنئة، وقد كانت طبائع الشعراء في الحقبة العباسية مضطربة ومتلونة، إذْ مضى بعض الشعراء في مدح بني العباس ، فازداد عددهم كثرة بحيث لا نجد خليفة عباسي إلا وقد وفد عليه عدد كبير من الشعراء، وإذا كان الشعراء في بداية تكوين الدولة العباسية قد حرّضوا العباسيين على استئصال شأفة خصومهم، فقد مضوا يعالجون نظرية العباسيين في الخلافة.

وكان علي بن الجهم مخلصاً للخلافة العباسية، فخوراً بالتشيع لها يعتقد أن بني العباس أولى الناس بسياسة الأمة وتولي أمورها، لا تصلح إلا عليهم، ولا تنقاد إلا إليهم ومن هنا نراه يفخر بخراسانيته سياسة، كما يفخر بقرشيته نسباً، وذلك أن خراسان كانت موطناً لآبائه حيناً من الدهر، وأهل خراسان هم الذين نصروا الدعوى العباسية وحملوا رايتها وحاربوا بني أمية، وكان اعتماد بني العباس عليهم، وفي مذهبه السياسي يقول للمتوكل (الديوان: ٢٦):

مـــذهبي واضـــح وأصـــلي خراســـا نُ وَعِـــزْيِ بِعِـــزَّكُمْ مَوْصَـــولُ

ويعلن في صراحة صريحة أنه من شيعة العباسيين وأنه خراساني من أصحاب الرايات السود شعار العباسيين، أو كما يسميها الخرق السوق (الديوان: ٣٤)

نحـــن أشـــياعُكُم مِـــن أهـــل خراســـا ن أُولُـــو قُـــوَّةٍ وَبَـــأْسٍ شَـــدِيدِ

نحـــن أبنـــاء هـــذه الخـــرق الســـو د وأهـــل التشـــيع المحمـــود

وقد استعان الشاعر بالآيات القرآنية وحورها لخدمة أهدافه وأغراضه فالخلافة العباسية ميراث ورثوه عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم الأحق بذلك بحكم قرابتهم القريبة من رسول الله عليه السلام، يقول من قصيدة له في مدح المعتصم : (الديوان: ١١)

أمـــا ومُحَـــرِّمِ البَلَـــدِ الحـــرام يمينـــاً بـــين زمـــزم والمقـــام

وقد ألح علي بن الجهم على التذكير بالقرابة التي تربط الخلفاء العباسيين بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله اختارهم ليُعز الإسلام بهم، وأن خلافتهم قضاء وقدر من الله، يقول من قصيدة له في مدح المتوكل : (الديوان: ٣٦-٣٧)

يـا "أبـا الفضـل" يـا بـن عـم رسـول ... الله أنـــت المؤمـــل المحـــذور

قـــدر اللهُ أَن يُعِـــزُّ بِـــكَ الإســـ ... والأمـــر كلـــه مقـــدور

ثـــم ولاك ناصـــرا لـــك مـــولا ... كَ فَـــنِعْمَ المـــولى وَنِعْـــمَ النَّصـــير

فـــانتقم يـــا خليفـــة الله ممـــن ... لـــم يـــزل قلبـــه عليـــك يَفُـــورُ

إنَّ حياة الشاعر كانت مليئة بالأحداث العجيبة منذ الطفولة وكان والده قد تولى العديد من وظائف الدولة وذلك بتعاقب الخلفاء، هذا ما يدل على أنه كان لأسرته بعض الجاه والوجاهة، لذا نشأ الشاعر في حياة تتميز بطلب العلم، وقد حضر الكتاتيب وإنه كان مشاغبا في طفولته كثير الحركة حتى انزعج والده من كثرة لعبه وشغفه بالبيت، فطلب من معلمه أن يسجنه ففعل، فاغتاظ الشاعر من والده وكتب إلى أمه مستغيثا(الديوان:٢١٢)

يـــا أُمتـــاه أفـــديك مـــن أم ... أشـــكو إليـــك فظاظـــة الجهـــم

قَـــدْ سَـــرَّحَ الصَّـــبِيانُ كُلُّهـــمُ ... وبقيـــت محصـــوراً بـــلا جـــرم

يبدو أن أولى محاولات الشاعر كانت من جنس الهجاء التي تتخللها العتاب من الأب والشكوى من سوء المعاملة إلى الأم وهذا مما يدل على أن لسان الشاعر سيكون من حدة سيكتوي الخصوم بنارها لاحقا !! والملاحظ من هذه المحاولة البدائية للشاعر أنه يستعطف أمه ويشكو من أبيه في أسلوب سهل ورقيق ولاسيما وأن الشاعر استطاع أن يعبّر عن عواطفه حيال الحدث.

مع ازدياد خصوم الشاعر تنوعوا وأن الأوان لكي يتخلصوا منه ويقطعوا بينه وبين الخليفة، وبدأ كل منهم يذكره بالقبيح عند المتوكل ويشوهون صورته، والعجيب في الأمر أن الشاعر كان على العلم بخصومه وأعدائه الذين دبروا له المكايد وفسدوا عليه العلاقة مع المتوكل إذْ يقول الشاعر في خصومه ويدعو الله عليهم باللعنة بما لا يحبهم الخليفة (الديوان، ٦٠)

علـــــيهِم لَعنَـــــةُ اللهِ اِبتَـــــداءً ... وَعَـــوداً فـــي الصَـــباح وَفـــي المَســـاءِ

وربما لم تسنح الفرصة للشاعر أن يشير إلى جميع أعدائه في هذا البيت الشعري وإنما اكتفى بالإشارة إلى البعض منهم على اختلاف دينهم وفكرهم ومذهبهم، فهذا يدل على التعاون والمشاركة في شيء أو أمر معين بين أعداء الشاعر من أجل خلق المشاكل له وإفساد الأيام عليه، فالدعاء واضح كل الوضوح وإن كان

ضمناً ولاسيما أن ذكاء الشاعر كان يدفع به إلى قلب الوضع على الأعداء والخصوم عن طريق وصفهم بصفات تدل على عدائهم بشكل أو آخر للخليفة والدعوة العباسية،

كانت منزلة الشعراء البارزين لدى رجال الدولة عرضة للمنافسة والضغينة بما يكنه لهم حسادهم فإنهم غالبا ما يتعرضون إلى الغض من منزلتهم، فيدفعهم ذلك إلى العتاب، ومن الأمثلة الرائعة للعتاب ما قام به الشاعر من عتاب للخليفة المتوكل فقد دفعه جلده وكبرياؤه، وقوة شخصيته في بداية سجنه إلى قول (الديوان: ٩٢):

يـا أَحمَـدُ بـنَ أَبـي دُؤادٍ إِنَّمـا ... تُـدعى لِكُـلِّ عَظيمَـةٍ يـا أَحمَـدُ

بَلِّـغ أَميـرَ المُـؤمِنينَ وَدونَـهُ ... خَـوضُ العِـدى وَمخـاوِفٌ لا تَنفَـدُ

أَنـتُم بَنـي عَـمِّ النَبِـيِّ مُحَمَّـدٍ ... أَولـى بِمـا شَـرَعَ النَبِـيُّ مُحَمَّـدُ

مـا كـانَ مِـن حَسَـنٍ فَـأَنتُم أَهلُـهُ ... طابَـت مَغارِسُـكُم وَطـابَ المَحتِـدُ

أَمِـنَ السَـوِيَّةِ يـاابنَ عَـمِّ مُحَمَّـدٍ ... خَصـمٌ تُقَرِّبُـهُ وَآخَـرُ تُبعِـدُ

إِنَّ الَّـذينَ سَـعَوا إِلَيـكَ بِباطِـلٍ ... أَعـداءُ نِعمَتِـكَ الَّتـي لا تُجحَـدُ

شَـهِدوا وَغِبنـا عَـنهُمُ فَتَحَكَّمـوا ... فينـا وَلَـيسَ كَغائِـبٍ مَـن يَشـهَدُ

تعددت البواعث في العصر العباسي للإقصاء والإبعاد بين الناس من غير سبب، فالبواعث كانت وليدة عوامل سياسية واجتماعية انعكست آثارها على رجال الدولة بالدرجة الأساس. وعلى الرغم من أن عتاب الخلفاء ليس جديداً إلا أن البواعث كانت جديدة ، وأسلوب الشاعر فيه يميل إلى الرقة، والوضوح، ويمكن أن نعد مشروعية العتاب، وسابق الصلة بين الشاعر والخليفة من أسباب نجاح الشاعر في إيراد ما يسوغ عتابه ولاسيما بعد التحولات السياسية والاجتماعية.

يشكو الشاعر من حاله ومما آل اليه الوضع به باطلا دون سبب، إذْ دفع به ذلك إلى عتاب الخليفة عتاباً لا يخلو من المخاشنة واللوم، ذلك لأنه خالف الشريعة وهو أولى الناس بالأخذ بأحكامها، فاستمع إلى أقوال أحد الخصمين وأصم أذنيه عن سماع كلام الآخر، مما جعله يحيد عن الطريق الأرشد، وقد اتخذ الشاعر العتاب وسيلة لإسماع صوته إلى الخليفة بعد أن حالت دونه و دون المتوكل الموانع. (الباشا، ١٩٠)

ويركز الشاعر على الجانب الديني عند محاولته معاتبة الخليفة من أجل أن يكون العتاب أشد وقعاً على المعتوب عليه من جانب والمتلقي من جانب آخر، فالخليفة ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فأحق به أن يكون عدلاً ولاسيما وأنه لم ولن يكون خصماً له وأن ما قيل عنه باطل غير حق، فهم أعداء نعمته أي نعمة الخليفة، فالشاعر عندما يشكو حاله ووضعه لا يهمل بقاءه في السجن جعله

يتجه إلى مدح الخليفة في قصائده العتابية دون المساس بالاعتذار والاستعطاف حتى يجعل الخليفة يحس به وبنكبته، وفي قوله: (الديوان/ ١٤٩):

فـــلا زالـــت الأرض معمـــورة تبـــوأت بعـــدك قعـــر الســـجو

بعمـــرك يـــا خيـــر عمارهـــا ن وقـــد كنـــتُ أرثـــي لزوارهـــا

كأن الشاعر أراد من خلال هذه القصيدة أن يأتي ببعد آخر في قصائده العتابية، فإلى جانب العتاب والشكوى يمهد الشاعر للاعتذار والإفصاح عن ندمه وحزنه لما آل إليه الوضع فهو يمدح الخليفة محاولاً تذكير الخليفة بنفسه ووضعه في قعر السجن بعيداً عنه وعن سلطانه وكأن الشاعر أراد من توظيف كلمة القعر أن يلفت نظر الخليفة إلى وضعه واليأس من عفوه ومغفرته، وفي مثال آخر يتخذ الشاعر من الشيب الذي اشتعل في رأسه منطلقاً للإفصاح عن همومه ومشاكله قائلا(الديوان:١٩٦)

حَسَـــرَت عَنِّـــيَ القِنـــاعَ ظَلـــومُ وَتَوَلَّـــت وَدَمعُهـــا مَســـجومُ

أَنكَـــرَت مـــا رَأَت بِرَأســـي فَقالَـــت أَمَشـــيبٌ أَم لُؤلُـــؤٌ مَنظـــومُ

قُلـــتُ شَـــيبٌ وَلَـــيسَ عَيبـــاً فَأَنَّـــت أَنَّـــةً يَســـتَثيرُها المَهمـــومُ

وَاِكتَسَـــت لَـــونَ مِرطِهـــا ثُـــمَّ قالَـــت هكَـــذا مَـــن تَوَسَّـــدَتهُ الهُمـــومُ

لَـــيسَ عِنـــدي وَإِن تَغَضَّـــبتَ إِلّا طاعَـــةٌ حُـــرَّةٌ وَقَلـــبٌ سَـــليمُ

وَاِنتِظـارُ الرِضـى فَـإِنَّ رِضـى السـا داتِ عِـــزٌّ وَعَتـــبَهُم تَقـــويمُ

فهذه الأبيات تمثّل شكوى الشاعر من حاله في السجن والذي أدى به إلى الشيب واشتعال الرأس شيبا إذْ أنه لا يرى في ذلك مشكلة أو عيباً لأن بياض الشعر إنّما جاء حزناً وكدراً على ما كان فيه من الغبن. وهناك نسق جديد للشاعر يمهد فيه للاعتذار وإن لم يصرح بذلك فهو على الرغم من عدم اقترافه ذنباً فهو ملزم بالقبول والرضى لأن رضى الخليفة إنما عزّ وتعلية شأن، فهو يقر بذنبه بشكل غير مباشر ويعمد الشاعر إلى ذكر نسب الخليفة الذي يعود إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في قصائده العتابية كثيراً، وكأنَّه كان صادقاً لمذهبه الديني مدافعاً عن فكره حتى ولو كان مظلوماً يحس بالغبن.

إنَّ الشعر يرفض السلطة ويرفض الواقع الذي يعيش فيه الشاعر من خلال غياب الموضوع الحقيقي أو الواقعي، ونجد هذا الغياب في معظم قصائده التي تحتوي الشكوى والعتاب مكتفيا بالاستبدال والاستدلال للموضوع الرئيس عن طريق التحليل والدراسة، وأن هذا الغياب الذي استأثر بالذات الشاعرة لا يعني عدم وجوده الكينوني والاجتماعي، فهو يمارس وعيه لذاته، ويتواصل في الزمان وينتقل في المكان بشكل ما، أو

بآخر، متقطعاً مع الآخر الذي يسعى إلى إلغائه، أو وضعه في دائرة الصمت فالغياب ليس معناه العدم. (خرماش: ١٩٩٥، ١٠٤).

المطلب الثاني

أساليب العيش وطرق الكسب

لا شك أنَّ العصر العباسي من العصور الإسلامية الزاهية التي تألَّقت فيها الحضارة الإسلامية، فبدت حواضر الخلافة في أفضل صورها، فنلحظ شدة التعالق بين تلك الحضارة المترَفة، والحياة الاقتصادية في ذلك العصر (اليعقوبي، د. ت، ص٢٥٣) ولما كان الشعر مرآة عصره، وديوانًا مصوِّرًا لكل تفصيلاته (الثعالبي، د.ت، ص٢٣) فقد اخترنا ديوان الشاعر العباسي(علي بن الجهم)؛ لنلقي نظرات عابرة على صورة الحياة الاقتصادية في زمنه، مما ضمَّنه في شعره، وذلك على النحو الآتي:

ونقصد بأساليب العيش وطرق الكسب هي المهن التي امتهنتها رعايا الخلافة العباسية إبَّان زمن الشاعر، كمصادر للدخل اوعتمد عليه أصحابه؛ لتوفية احتياجاتهم المعيشية، ومن ذلك (تجارة الخمور) وانتشار الحانات التي انتشرت في العصر العباسي انتشارًا ملحوظًا، وما صاحب مجالس الشراب من امتهان العزف؛ نظرًا لحياة الترف التي اصطبغ بها العصر ككل (الأندلسي، ٥/ ٢٠٣) وتخصَّص فيها اليهود غالبًا، وهذا واضح مما أورده الشاعر في قوله: (الجهم، د.ت، ص٣٣):

حَبَّـــذا مَجْلِـــسٌ تَـــدُورُ عَلَيْنـــا ... فِيـــهِ كَأْســـانِ بَـــيْنَ نـــايٍ وَعُـــودِ

مِـــنْ شَـــرابٍ يَعافُـــهُ المُسْـــلِمُ العَـــفُّ ... وَتَحْظَـــى بِـــهِ أَكُـــفُّ اليَهـــودِ

إذ تناول الشاعر المفارقة بين سلوك المسلم المتمسك بدينه وغيره ممن انفلت أخلاقيًّا، على النحو الذي وصم بها تاجر الخمر، وصاحب الحانة، والذي يكون غالبًا من اليهود الذين احترفوا تلك التجارة الرائجة في ذلك العصر، واستعملوا كثيرًا من العازفين والعازفات، والمغنِّين والمغنِّيات؛ للترفيه عن الزبائن؛ استكمالًا لحالة النشوة التي تنتاب معاقر الخمر. (الجاحظ، ١٤٢٣، ص٢٧٨)

ومن هذا الباب ما أورده الشاعر؛ إذ نزل أحد بيوت الضيافة في (الكرخ)، في ذلك يقول: (الجهم، د.ت، ص٥):

نَزَلْنـــا بِبـــابِ الكَـــرْخِ أَفْضَـــلَ مَنْـــزِلٍ ... عَلَـــى مُحْسِـــناتٍ مِـــن قِيـــانِ المُفَضَّـــلِ

أَوانِـــسُ مـــا فِـــيهِنَّ لِلضَّـــيْفِ حَشْـــمَةٌ ... وَلا رَبُّهُـــــنَّ بِالمَهِيـــــبِ المُبَجَّـــــلِ

وكان هدف تلك الدور إحراز المكاسب، فلا غرو أن يلقى الضيفُ النساءَ سافرات للمجالسة (أوانس)، فيما يرحب صاحب الدار بالزبائن غير مكترث للعادات المحافظة، أو الاحتشام (ولا ربهن بالمهيب)؛ كون الهدف الترفيه والتسلية، وإحراز الربح فحسب، وكان الجواري يغنين من وراء ستار، ولكن كان من المبالغة في إكرام

الضيف أن تغني المغنيات بين يدي الستار، وغير ذلك مما يدور في فلك المجلس من الكلام على الأطعمة والمشارب، تخلُّصًا إلى الندماء ومجالس اللهو والغناء، انعطافًا إلى مراتع الوجدان في دائرة الغزل والهوى والعشق (الأصفهاني، ١٤٢٠، ١/ ١١).

ومن الوظائف الاعتبارية التي تكسَّب منها أصحابها (الوشاية)، أو من تخصَّص في نقل الأخبار لصُنَّاع القرار ومراكز الحكم، وهي مهنة موجودة في كل عصر، وإن اتسمت في عصر العباسيين بالإتقان، والمهارة في استقاء الأخبار؛ طلبًا للمكافآت السخية (العسكري، ١٤٠٨، ص١٦٨) وفي ذلك يقول الشاعر مخاطبا المتوكل من محبسه (الجهم، د.ت، ص٤٧):

فَبِـــأَيِّ ذَنْـــبٍ أَصْـــبَحَتْ أَعْراضُـــنا نَهْبًـــا يُشِـــيدُ بِهـــا اللِّئِـــيمُ الأَوْغَـــدُ

إذ يلقي الشاعر باللائمة لا على الخليفة الذي حبسه، بل على الواشين ممن نقل له أخبارًا مغلوطة؛ أداء لوظائفهم من ناحية، وطلبًا للحظوة لدى الخليفة من ناحية أخرى.

وفي الناحية المقابلة، تبدو وظيفة الأمن، وحراسة السجون من الوظائف الشاقة التي يتعرض أصحابها لضغوط ذهنية وبدنية كبيرة، ويتضح ذلك من خلال قول الشاعر(الجهم، د.ت، ص٥٠):

وَمـــا لِعُهـــودِ الغانِيـــاتِ ذَمِيمَـــةً وَلَيلَـــى حَـــرامٌ أَنْ تُـــذَمَّ عُهودُهـــا

أَلَمَّـــتْ وَجُـــنْحُ اللَّيْـــلِ مُـــرْخٍ سُـــدُولَهُ وَلِلسَّـــجْنِ أَحـــراسٌ قَلِيـــلٌ هُجودُهـــا

فوظيفة الحارس، كما ورد أعلاه، من المهن التي تطالب عديدا من الصفات التي تعتمد على اليقظة والحذر، إذْ لا يتمكن الحارس من نيل نصيبه الأوفى من الراحة، مما نجده في قوله: قليل هجودها.

وراجت تجارة أدوات الزينة للنساء، مثل: الخلاخيل التي تضعها المرأة في قدميها، وهذا مانجده في قول الشاعر: (الجهم، د.ت، ص٥١):

فَـــلا تَجْزَعِـــي إِمَّـــا رَأَيْـــتِ قُيـــودَهُ فَـــإِنَّ خَلاخِيـــلَ الرِّجـــالِ قُيودُهـــا

وتناول الشاعر المفارقة بين الخلاخيل التي ترن في أقدام النساء في مقابل القيود التي يلبسها السجين، بما يشير إلى أن تجارتها راجت في ذلك العصر، فاستعملتها النساء ضمن أدوات الزينة (القاسم، ١٩٨٠، ص٣٠٣).

وبرزت مهنة الطب من المهن التي احتلت مكانة مرموقة في ذلك العصر؛ إذ اعتمد المتوكل على طبيبه الخاص (بختيشوع)، وكال له الهدايا، وزاد في تقديره (الجاحظ، ١٤٢٤، ٧/ ٤٤٢) حتى صارت المهنة من مصادر الدخل المهمة في ذلك العصر، وقد أورد ابن الجهم زيارة أحد الأطباء له في قوله (الجهم، د.ت، ص١٠٦):

تَنَكَّـــرَ حـــالَ عِلَّتِـــيَ الطَّبِيـــبُ وَقـــالَ أَرَى بِجِسْـــمِكَ مـــا يَريـــبُ

جَسَسْـــتُ العِـــرْقَ مِنْـــكَ فَـــدَلَّ جَسِّـــي عَلَـــى أَلَـــمٍ لَـــهُ خَبَـــرٌ عَجِيـــبُ

وأشار الشاعر في البيتين أعلاه إلى مهنة الطب، وآليات فحص المريض، وما في ذلك من قدرة الطبيب على تشخيص الحالة بمجرد جس العرق لدى المريض.

وبرزت أيضا مهنة القضاء في قول الشاعر (الجهم، د.ت، ص١٠٨):

إِنَّمـــا ذَنْبِـــي إِلَـــيْهِنَّ المَشِـــيبُ فَمَتَـــى يَعْفُـــونَ أَمْ كَيْـــفَ أَتُـــوبُ

غـــابَ قـــاضٍ كـــانَ يَقْضِـــي بَيْنَنـــا وَمِـــن الغُيَّـــابِ مَـــنْ لَـــيْسَ يَـــؤُوبُ

وقد وظَّف الشاعر مهمة القاضي بصورة تخدم سياق الأبيات؛ إذ جعل الشعر الأسود، علامة الشباب، بمثابة القاضي الذي غاب ولن يعود، في إشارة إلى انتشار مهنة القضاء، وتكسُّب القضاة منها.

ولم يغفل الشاعر التكسب من الشعر والأدب، مما شاع في عصره، فأورد (الجهم، د.ت، ص١١٠):

وَرُبَّ مَحْمـــودِ فِعْـــلٍ مـــا لَـــهُ حَسَـــبُ إِلَّا صَـــنائِعُ جاءَتْـــهُ مِـــن الأَدَبِ

إذ ذم الشاعر من لم ينحدر من أصول عريقة، واحتل مكانة مرموقة من الأدب؛ كون العطايا قد انهالت عليه من هنا وهناك.

وهناك من امتهن مهنة الصيد، أو قيادة إحدى المراكب الشراعية التي تمخر عباب الأنهار، وفي ذلك يقول الشاعر، في وصف أحد المراكب: (الجهم، د.ت، ص١١٥):

فُرْســـانُهُ الأَنْبـــاطُ مِـــن مَيْســـان أَهْـــلِ الرِّيَـــبِ

إذ أشار الشاعر إلى امتهان الأعاجم (الأنباط) هذه المهنة؛ لطول تمرُّسهم بها، فيبدون فوق سطح المركب كفرسان الوغى.

وكان خلفاء بني العباس يجلون أهل العلم الذين كانوا من أصحاب أعلى الدخول في ذلك العصر، وفي هذه الشريحة يقول الشاعر (الجهم، د.ت، ص١٥٨):

أَخْبَرَنـــي قَـــوْمٌ مِـــن الثِّقـــاتِ أُولُـــو عُلـــومٍ وَأُولـــو هَيْئـــاتِ

تَفَرَّعـــوا فـــي طَلَـــبِ الآثـــارِ وَعَرَفـــوا مَـــوارِدَ الأَخْبـــارِ

وَدَرَســـوا التَّـــوْراةَ وَالإِنْجـــيلا وَأَحْكَمـــوا التَّأْويـــلَ وَالتَّنْـــزيلا

تناول الشاعر شرائح أهل العلم، وآلياتهم في العمل، وتخصُّصاتهم، من أصحاب العلوم، ودارسي الآثار، فضلا عن المؤرخين العالمين بموارد الأخبار، ودارسي الأديان العالمين بالكتب السماوية، والقرآن الكريم، على النحو الذي يشير إلى تكسب هذه الطائفة من العلوم، واحتلالهم موقعا مرموقا في وجدان الأمة كلها؛ إذ كانوا محل الاستشارة والسؤال.

وقد تحكم بعض الوزراء في أموال الدولة، مما أثر بالسلب على الحياة الاقتصادية في زمن المتوكل، ومنهم (محمد بن عبد الملك الزيات) وزير المتوكل، وفيه يقول ابن الجهم (د.ت، ص٣٩):

وَتَحَكَّـــــمَ الزَّيَّـــــات فـــــي أَموالِهـــــا ودِمائِهـــــا

زَارٍ عَلَـــــى سُـــــنَنِ النَّبِـــــيّ يَجِـــــدُّ فـــــي إِطفائِهـــــا

وقد أشار البيتان إلى اشتداد الوزير على الرعية (الدارقطني، ١٩٨٦، ٢/ ١٠٥٥) وتحكُّمه في أموال الدولة، وهو ما أدى إلى ضيق الناس، وتبرُّمهم بحكمه.

المطلب الثالث

الموارد وبيت المال في ذلك العصر

اعتمدت الخلافة العباسية على سلسلة من الدواوين،؛ اقتداء بالفرس في هذا الصدد، وقد أجمل (ابن خلدون) مهامها في قوله: "اعلم أنّ هذه الوظيفة من الوظائف الضَّروريَّة للمُلك، وهي القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدَّولة في الدَّخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم في إبَّاناتها، والرُّجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتِّبها قَوَمة تلك الأعمال، وقهارمة الدَّولة، وهي كلُّها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب، لا يقوم به إلا المَهَرة من أهل تلك الأعمال، ويُسَمَّى ذلك الكتاب بـ (الدّيوان)، وكذلك مكان جلوس العمَّال المباشِرين لها" (ابن خلدون، ١٩٨٨، ١/ ٣٠٢)

وقد اعتمدت الدولة على الضرائب التي خصَّص لها ديوانًا كبيرًا، فضلًا عن بقية الدواوين التي اعتمدت عليها الدولة، مما أورده الشاعر في هجاء (عبد الملك الزيات) وسياساته الاقتصادية الجائرة (الجهم، د.ت، ص١١٩):

وَعَـــنْ عُقـــولِ النَّـــاسِ خارِجـــات يَرْمِـــي الـــدَّواوِينَ بِتَوْقِيعـــات

بَعْـــدَ رُكـــوبِ الطَّـــوفِ فـــي الفُـــرات وَبَعْـــدَ بَيْـــعِ الزَّيْـــتِ بالحَبَّـــات

وأوضح البيتان حالة الغلاء التي أصابت الناس بالضيق فيما اهتم الوزير بجباية الضرائب، وتحصيل رسوم الدولة، فشحت السلع الأساسية كالزيت الذي بيع (بالحبات) بحسب ما أورد البيتان؛ تندّرًا باسمه الذي يشير إلى كثرة الزيت بينما ندر وجوده في الأسواق.

وجاءت المصادرات من موارد بيت المال في العصر العباسي؛ إذ كانت الأموال والأملاك تصادر في حق المحكوم عليهم، أو بأمر من الخليفة ووزيره، أو المسؤول عن ديوان التوقيعات، وكانت أموال المصادرات

عظيمة، منها ما تمت مصادرته في سنة فقط نحو(مليون دينار)،مما أورده (مسكويه):"أمّا المصادرات، فقد صحّ منها، في مدّة أربعة عشر شهرًا، نحو ألف ألف دينار"(مسكويه،،٥/٢٢٢)

ومن ذلك مصادرة أموال عمر بن الفرج الرُّخَّجي (الجهم، د.ت، ص١٣):

أَبْلِـغْ نَجاحًـا فَتـى الفِتْيـانِ مَأْلُكَـةً تَمْضِـي بِهـا الـرِّيحُ إِصـدارًا وَإِيـرادا

لَـنْ يَخْـرُجَ المـالُ عَفْـوًا مِـن يَـدَيْ عُمَـرٍ أَو يُغْمَـدُ السَّـيْفُ فـي فَودَيْـهِ إِغْمـادا

إذ حضَّ الشاعر صاحب ديوان التوقيعات (نجاح بن سلمة) ضرورة الاشتداد على (عمر الرخجي)؛ للإدلال على ما يمتلكه من أموال ونفائس، وكان نجاح مهيبًا يتقيه الناس؛ كونه صاحب حيلة، وكانت له أساليب عجيبة في الظفر بالهاربين مما وُقِّعت عليهم الأحكام (ابن عساكر، ١٩٩٥، ٦١/ ٤٥٢) وأشارت الأبيات إلى كراهية الشاعر للمحكوم عليه، حتى إنه رأى أن إغماد السيف في رأس المحكوم عليه (فوديه) هو الوسيلة الناجعة لحصر ما يملكه.

المطلب الرابع

ترف الخلافة

لقد عاشت الخلافة العباسية في ازدهار اقتصادي كبير، مما انعكس على الحياة الاقتصادية في ذلك العصر، فضلاً عن العطايا التي نثرها الخلفاء نثرًا على الشعراء، ولا أدل على حياة الترف التي عاش فيها الخلفاء العباسيون من إحاطتهم أنفسهم بالنخبة المجتمعية التي عجَّ بها بلاط الخليفة، من الأطباء، كابن ماسويه، الطبيب الخاص للخليفة المأمون (ابن الأثير، ١٩٩٧، ٥/ ٥٧٩) والشعراء باختلاف طبقاتهم؛ بوصفهم أهم آليات الإعلام في وقتهم؛ إذ تخلد قصائهم أمجاد الخليفة؛ بوصفه راعب الدين والعلم، والفاتح المنتصر في الحروب والمعارك، فضلًا عن الوزراء وقادة الجند، والموسيقيين والعبيد والجواري القينات، وغيرهم من صفوة المجتمع العباسي آنذاك، هو مظهر تفرَّد به آل العباس، وفاقوا فيه الدولة الساسانية في أوج عظمتها (العيدروس، د.ت، ص٢٣٨) مما يشير إلى حالة اقتصادية ممتازة تمتعت بها دار الخلافة، ومن ذلك ما أورده علي بن الجهم يمدح الواثق (الجهم، د.ت، ص١٣):

مَلِـــكٌ يَشْـــقَى بِـــهِ المَـــالُ وَلا يَشْـــــــقَى الجَلِـــــــيسُ

فنسب الشاعر المال إلى الشقاء، بمعنى أنَّ المال يصيبه التعب من ابتدار الخليفة إياه على جلسائه، فيما لا يشقى به الجلساء، بطبيعة الحال؛ لحصولهم على المال من دون عناء.

وسجل ابن الجهم كذلك حرص الخلفاء على اقتناء التحف غالية الثمن، مما كان يعجُّ به قصر الخليفة، وهو ما نجده في قوله (الجهم، د.ت، ص١٤):

بَـــانَ بِقُـــرْبِ الخَلِيفَـــةِ التُّحَـــفُ مَحَـــلٌ صِـــدْقٍ وَرَوْضَـــةٍ أُنُـــفُ

فهو يثنى على القصر الذي احتل موقعا مميزا، وما يحويه من نفائس وتحف، فكان كالتحفة المعمارية التي حوت تحفا، ما شهد تأنقا وإنفاقا فاق التصور؛ اقتداء بالحضارة الفارسية، بحسب ما أورد (شوقي ضيف): "ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا: إنَّ النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طُبِعت بطوابع فارسية قوية" (١٩٦٠، ٣/ ٢٦) وهو ما انعكس على الجانب الاقتصادي كذلك. وقال فيه (الجهم، د.ت، ص١٦):

مَـــــا رَأَى النَّـــــاسُ إمامًـــــا أَنْهَـــــبَ الأَمْـــــوالَ نَهْبَـــــكَ

وقد ربط الشاعر بين الممدوح؛ بوصفه إمامًا، وتحكُّمه في مصارف الدولة المادية، بحيث يعطي بلا رقيب ولا حساب بصورة لم يسبق لها مثيل (أنهب المال نهبك).

وقال يصف قُبَّة أحد القصور (الجهم، د.ت، ص١٦):

لَهـــا شُـــرُفاتٌ كَـــأَنَّ الرَّبِيـــعَ كَســـاها الرِّيـــاضَ بِأَنْوارِهـــا

فقد أنفق الخليفة على قبة القصر، فباتت وكأنها جزء من السماء، ولها نوافذ يدخل منها الضوء الخارجي، فتبدو للناظرين أزهارًا بيضاء اللون وسط لون القبة الذي أبرزها وجلَّاها، مما يعكس ميل العباسيين إلى التأنق في المعمار، واقتدائهم بالفرس في هذا الصدد، ولو كلفهم مبالغ طائلة، فكانت "مصاريع الأبواب تُصنَع من الخشب المحلَّى بالنقوش، وتتألق النوافذ بالزجاج الملوَّن، وتُزخرَف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يُذَهَّبْ السقف والأبواب والحيطان" (ضيف، ١٩٦٠، ٣/ ٤٥)

وقال يمدح المتوكل (الجهم، د.ت، ص١٣٦):

يَـــداهُ فـــي الجُـــودِ ضَـــرَّتانِ عَلَيْـــهِ كِلْتاهُمـــا تَغـــارُ

لَـــمْ تَـــأْتِ اليَمِـــينُ شَـــيْئًا إِلَّا أَتَـــتْ مِثْلَـــهُ اليَســـارُ

وأشار البيتان إلى ما يشبه فقدان الخليفة عقله في العطاء، وإسرافه في الخلع التي يخلعها على الجميع بلا حساب، حتى بدت يداه كضرتين (زوجتيه) تغار كلاهما عليه، فلا تلبث أحدهما أن تفعل شيئا إلا تبعتها الأخرى، كتصوير من الشاعر لإسرافه الشديد.

وقال في إتلافه للمال (الجهم، د.ت، ص١٤٧):

وَلا يَجْمَـــعُ الأَمْـــوالَ إِلَّا لِبَـــذْلِها كَمـــا لا يُســـاقُ الهَـــدْيُ إِلَّا إِلـــى النَّحْـــرِ

وَفَــرَّقَ شَــمْلَ المــالِ جُــودُ يَمِينِــهِ عَلَــى أَنَّــه أَبْقَــى لَــهُ أَحْسَــنَ الــذِّكْرِ

فالخليفة يجمع المال؛ ليفرقه مرة أخرى، حتى إنَّ المال لو كان مجموعة مجتمعة من الأشخاص لقيل: قد فرق الخليفة شملهم؛ لشدة كرمه، وبذله المال الذي لا يعرف له الخليفة فائدة سوى أنه أتاه ليُنفَقه، وتذكر المصادر في هذا الصدد ما يفوق الخيال، ومن ذلك أن الخليفة العباسي (المهدي) قد فرَّق، من صلب ماله، في يوم واحد، ما يقارب عشرة آلاف ألف دينار (عشرة ملايين) (المسعودي، ١٤٠٩، ٣/ ١٣)

ولم يكن الخليفة مصدر العطايا والهدايا وحده؛ إذ كان لوجهاء الدولة نصيب في الإغداق على الأتباع، ولاسيما الجواري اللواتي نلن النصيب الأوفى من العطاء، وفي ذلك يقول الشاعر (الجهم، د.ت، ص١٤٧):

حَجُّــوا مَوالِيــكِ يــا بُرْهــانُ وَاعْتَمَــروا وَقَــدْ أَتَتْــكِ الهَــدايا مِــن مَوالِيــكِ

وكان موالي(أسياد) الجارية برهان قد اعتمروا، وعادوا من رحلة العمرة، فأهدوها بعض الهدايا، وكانت جارية الخليفة (المتوكل)،وقد أشار البيت إلى حالة الغنى واليسار التي تمتع بها مُلَّاك الجواري.

ولا شك أنَّ إحسان الخليفة كان الشغل الشاغل لدى العوام، وكان ما يفيض به عليهم من نعمه وعطاياه محل المديح من الجميع، وفي ذلك يقول الشاعر مادحا الواثق بالله (الجهم، د.ت، ص١٨٨):

أَفــاضَ مِــن عَــدْلٍ وَمِــنْ نائِــلٍ مــا أَحْسَــنَ الــدُّنيا مَــعَ الــدِّينِ

وَعَــمَّ بِالإِحْســانِ مِــن فِعْلِــه فَالنَّــاس فــي خَفْــضٍ وفــي لِــينِ

وأشار البيتان إلى سياسة حكيمة اتبعها الخليفة، وهي الجمع بين توفير العدل (أفاض من عدل)، بجانب إنعاش الجانب الاقتصادي للجماهير (من نائل)، ومن ثم، جاء (الإحسان من فعله) مقابلًا لحالة الخفض واللين، ورضا الجماهير عن حالتها المعيشية، وهو ما يشير إلى أنَّ حالة الإسراف في العطايا لم تقتصر على الحاشية ورجال الدولة فحسب، بل كان للرعية نصيب فيها كذلك.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١. تعدَّدت أساليب التكسُّب في زمن الشاعر (العصر العباسي)؛ إذ تناول الشاعر المهن التي أوردها الشاعر في أشعاره، مثل: الطب، القضاء، فضلًا عن المهن اليدوية التي تعتمد على الجهد العضلي، كقيادة المراكب.

٢. لوحظ تعدُّد مواضع الأبيات التي تشير إلى مهنة صناعة الخمر، والعزف والغناء، في ديوان الشاعر، على النحو الذي يشير إلى انتشار صناعة الترفيه، بما يتسق مع الطابع له.

٣. انتشر التكسب من الأعمال الاستخباراتية (الوشاية)، بحيث برز حرص المسؤولين على معرفة الخفايا مما يدور وراء الستار، مقابل مكافآت متميزة للوشاة.
٤. اعتمد العلماء والأدباء على التكسُّب من العلم والأدب، ونالوا مكانة مجتمعية كبيرة في المجتمع، وكانوا محل تكريم الخلفاء، مثل: الطبيب (بختيشوع) الذي كان يضارع الخليفة (المتوكل) في اللباس والمأكل.
٥. مثَّلت أعمال الجبايات، وتحصيل الرسوم، أحد أهم مصادر بيت المال في العصر العباسي، مما أشار له المؤرخون، كابن خلدون وغيره؛ إذ قسَّم العباسيون الهيكل الإداري إلى دواوين، عنيت فيها دواوين بعينها بالجوانب الاقتصادية، مثل: الضرائب والرسوم.
٦. لوحظ في ديوان الشاعر تناوله الوزير (محمد بن عبد الملك الزيات) في عديد من المواضع بحيث انتقد أداؤه الاقتصادي الذي أضرَّ بالأسعار، ووصل إلى أن افتقد الناس بعض السلع الرئيسة،
٧. مثَّلت أموال المصادرات أحد الروافد الاقتصادية للدولة؛ إذ اختص ديوان التوقيعات بمصادرة ممتلكات المحكوم عليه، وعكس شعر الشاعر لجوء صاحب الديوان أحيانًا إلى ممارسة الضغوط على المحكوم عليه؛ لإدلاله على أمواله.
٨. أبرز ديوان الشاعر حياة اللهو والترف التي عاشها خلفاء بني العباس، وكبار قادتهم، ومن أحاطوا بهم من الحاشية، على النحو الذي مثَّل توجها اقتصاديا للدولة، فيما شملت عطايا الخليفة الجميع، سواء من المقربين أو غيرهم.
٩. جاء الأداء الاقتصادي للدولة العباسية إجمالًا متأثرًا بدولة الفرس التي سبقتها؛ إذ حرص الخلفاء على التأنُّق والإسراف المبالغ فيه؛ لكي تكون دولتهم كدولة (فارس) سواء بسواء، وهو ما حمل وجهًا حضاريًّا، مثَّل محصلة نهائية للأداء الاقتصادي الذي مثَّل الوجه الآخر.

Sources and references

• Ibn al-Atheer, p. (1997). Al-Kamil fi al-Tarikh, ed.: Omar Abd al-Salam Tadmuri, Dar al-Kitab al-Arabi, (1st edition), Beirut, Lebanon.

• Ibn al-Jawzi, A. (1997), News of the Strangers and the Magnificent. Edited by: Bassam Abdel Wahab Al-Jani, (1st edition), Lebanon: Dar Ibn Hazm.

• Ibn Taghri Bardi, i. (Dr. T), Source of Kindness in the Ruler of the Sultanate and the Caliphate, edited by: Nabil Muhammad Abd al-Aziz Ahmed, (Dr. T), Cairo - Egypt: Dar Al-Kutub Al-Misria.

• Ibn Khaldun, A. (1988), Diwan al-Mubtada wa al-Khabar fi Tarikh al-Arab and Berber, and those of great importance to their contemporaries, ed.: Khalil Shehadeh, (2nd ed.), Dar al-Fikr, Beirut.

• Ibn Khallikan Al-Barmaki Al-Arbli, Abu Al-Abbas Shams Al-Din Ahmad bin Muhammad bin Ibrahim bin Abi Bakr (d. 681 AH), Fiat Notables and News of the Sons of the Age: Editor: Ihsan Abbas, Publisher: Dar Sader - Beirut.

• Ibn Abd al-Barr, i. (1992), Absorption fi Ma'rifat al-Ashab, ed.: Ali Muhammad al-Bajjawi, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Jeel.

• Ibn Asakir, A. (1995), History of Damascus, ed.: Amr bin Gharamah Al-Amrawi, (D. I.), Dar Al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, (D. N.).

• Al-Isfahani, A. (1420). Lectures of writers and dialogues of poets and rhetoricians, Dar Al-Arqam Bin Abi Al-Arqam Company, (1st edition), Beirut.

• Al Salem, A.; Huynh, K. (2014). The environment and its impact on the language of Ali bin Al-Jahm, semantic analysis: description of the camel as a model, Journal of the College of Basic Education, Al-Mustansiriya University, (p. 81), Iraq.

• Al-Andalusi, A. (1404), Al-Eqd Al-Farid, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (1st edition), Beirut.

• Al-Basha, Abdul Rahman, Ali bin Al-Jahm, His Life and Poetry, Dar Al-Maaref, Egypt.

• Al-Thaalabi, A. (d.t.). Improving the ugly and making the beautiful ugly, ed.: Nabil Abdel Rahman Hayawi, Dar Al-Arqam bin Abi Al-Arqam, (ed.), Beirut, Lebanon.

• Al-Jahiz, A. (1423). Literary Letters, 2nd edition, Al-Hilal House and Library, Beirut.

• Al-Jahiz, A. (1424). Animals, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (2nd edition), Beirut.

• Al-Jahm, A. (D. T.), Diwan of Ali bin Al-Jahm. Edited by: Khalil Mardam Bey, (2nd edition), Beirut - Lebanon: Arab Heritage Committee.

• Al-Hamid, K.H. (1995), Political Economy Foundations and Principles, (Ed.), Aleppo: Aleppo University Publications, Faculty of Law.

• Kharmash Muhammad (1995), Social Reference in the Formation of Literary Discourse, Tunisia, University of Tunisian Journals.

• Al-Khatib Al-Baghdadi, A. (2002), History of Baghdad, ed.: Bashar Awad Marouf, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Gharb Al-Islami.

• Khamas, K. (D. T) Cultural Councils in the City of Baghdad,(D. I), (D. M): (D. N).

• Al-Daraqutni, A. (1986). The Compound and the Different, edited by: Muwaffaq bin Abdullah bin Abdul Qadir, Dar Al-Gharb Al-Islami, (1st edition), Beirut.

• Guest, Sh. (1995), History of Arabic Literature. (1st edition), Egypt: Dar Al-Maaref.

• Al-Tarwanah, c. (2004). Economic Life in the Poetry of the First Abbasid Era 123 AH-232 AH, PhD thesis, College of Arts, Mu'tah University, Department of Arabic Language and Literature, Jordan.
• Abdullah, A. (2012). Cultural manifestations in the poetry of Ali bin Al-Jahm, Journal of Human Sciences, University of Babylon (No. 13), Iraq.
• Al-Askari, A. (1408). Al-Awael, Dar Al-Bashir, (1st edition), Tanta.
• Attia, A. (2021). Cultural Dimensions in the Poetry of Ali Bin Al-Jahm: An Analytical Study, Journal of the Faculty of Arabic Language in Itay Al-Baroud, Al-Azhar University (No. 34), (Part 1), Egypt.
• my age. (2015). Characteristics of Poetry in the Abbasid Era, Nile Valley Journal for Human, Social and Educational Studies and Research, Cairo University - Khartoum Branch - Faculty of Arts, (Vol. 8), (No. 8), Egypt.
• Al-Aidaroos, M. (d.t.). The Political and Cultural History of the Abbasid State, Dar Al-Kitab Al-Hadith, (ed. i.), (d. n.).
• Al-Ghadad, M. (2014). The cultural impact on the poetry of the first Abbasid era, PhD thesis, University of Basra, College of Arts, Iraq.
• Farroukh, A. (1981), History of Arabic Literature, Abbasid Eras, Modern Literature: Until the End of the Fourth Century AH, 132 AH-399 AH (750 AD-1008 AD). (4th ed.), (D.N.).
• Al-Qasim, S. (1980). Proverbs, edited by: Abdel Majeed Qatamish, (1st edition), Dar Al-Mamoun Heritage, (D.N.).
• Al-Marzbani, M. (1982), Dictionary of Poets. Edit: F. Karanko, (2nd edition), Beirut - Lebanon: Al-Qudsi Library, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
• Al-Mustasimi, M. (2015), The unique pearl and the bottom line. Edited by: Kamel Salman Al-Jubouri, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
• Al-Masoudi, A. (1409). Meadows of Gold and Substantial Minerals, ed.: Asaad Dagher, (1st edition), Dar Al-Hijra, Qom.
• Miskawayh, 2000, The Experiences of Nations and the Succession of Determinations, edited by: Abul-Qassem Emami, (2nd ed.) Soroush, Tehran.
• Al-Masry, R. (1993), The Origins of Islamic Economics, (ed.), Damascus: Dar Al-Qalam, Beirut - Lebanon: Dar Al-Shamiya.
• Al-Yaqoubi, A. (D.T.). Al-Alaq Al-Nafisah, followed by Kitab Al-Buldan, (d. i), (d. n).